

الهجرة الدولية حافز لاستعمال التكنولوجيا التواصلية وتكوين مجتمع متصل وممتد دوليا

د. حيتومي محمد

أستاذ علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب

ملخص:

نسعى في هذا المقال إلى الكشف عن المفعول العميق المترتب عن الاعتماد المتبادل بين كل من الهجرة الدولية والتكنولوجيات الذكية للتواصل الاجتماعي المعاصرة. وبالفعل، فقد تبين من خلال مجموعة من الوقائع الاجتماعية والمعطيات الإحصائية بمدينة خريبكة (المغرب) أن ظاهرة الهجرة الدولية، وفي خضم التسارع الكبير لظاهرة العولمة، اضطرت الفاعلين الاجتماعيين إلى استثمار التطور التكنولوجي الهائل عن طريق الانخراط بشكل مكثف في شبكات التواصل الاجتماعي، وعبر استعمال التكنولوجيات التواصلية الذكية بجميع أشكالها. أكثر من ذلك، لقد ثبت ميدانيا أن الهجرة الدولية وظاهرة الغياب والغربة المرتبطة بها، فضلا عن الحاجة الماسة للتواصل الأسري والعائلي، قد دفعت أيضا فئة الكبار والمسنين من الآباء والأمهات إلى تعلم أجدديات هذه التكنولوجيات الذكية فيما يمكن تسميته "محو الأمية التكنولوجية والتواصلية". كذلك ساهم اعتماد المهاجرين بالمهجر وذويهم بمدينة خريبكة على شبكات التواصل الاجتماعي الرقمية في تغيير العديد من الوضعيات الاجتماعية التي كان يعيشها هؤلاء من قبيل استبدال "الغياب المزدوج" بـ "الحضور الثلاثي"، وترميم "الحياة الاجتماعية غير المكتملة بالمهجر" بـ "حياة اجتماعية عبر وطنية" مستمرة وقائمة على الاتصال والارتباط المتواصل فيما بين أفراد الأسرة والمجتمع الواحد، ليس مجاليا وإنما افتراضيا ورقميا.

الكلمات المفتاحية:

الهجرة الدولية، التغير الاجتماعي، استعمال تكنولوجيا التواصل الاجتماعي، شبكات التواصل الاجتماعي، المهاجر المتصل، الأسرة المتصلة والممتدة عبر الأوطان.

ABSTRACT

The purpose of this article is to enlighten the deep interlink between international migration and the development and the usage of smart technologies as an essential tool in modern social communication. Indeed, based on statistical data and various social events in the region of Khouribga (Morocco), it has been proved that the phenomenon of international migration, in an era of globalization, has forced individuals to be fully involved as active users of social networks and smart technologies. Furthermore, it has been empirically demonstrated that the phenomena of migrants' absence and family geographical dispersion related to the international migration, together with the need to stay in close contact with family members have pushed not only migrants' adult relatives, but also the elderly generation to learn how to use the smart technology, in a process that could be defined as "Information and Communication Technology literacy".

Additionally, the usage of social networks and smart technology participated in replacing several past social situations into new ones; such as a "double absence" becoming a "triple presence" and a "fragmented social life abroad" being transformed into a "transnational social life".

Key words: International migration, social change, smart technology usage, smart social networks, connected migrant/ e-migrant, transnational/connected family.

تمهيد:

ننتقل في هذا المقال من فرضية بحثية ميدانية نرى من خلالها أن الهجرة الدولية، التي يمارسها الأفراد والأسر من كل فئات المجتمع من مدينة خريبكة (وسط المغرب)، تنتج نوعا من الغياب والغربة والاختلاف فيما بين المهاجرين المتواجدين ببلدان المهجر (بأوروبا خصوصا) من جهة، والأهالي من عائلاتهم وأصدقائهم ومحيطهم الاجتماعي الأصلي من جهة أخرى. بالمقابل تعمل نفس الظاهرة الاجتماعية (أي الهجرة الدولية) على خلق تفاعلات اجتماعية بديلة للتواصل المباشر عن قرب من خلال حفز وتشجيع هذه الفئات من المجتمع على الاستعمال المكثف لوسائل الاتصال والتواصل الرقمية وعن بعد. وذلك للحد من فتور العلاقات الاجتماعية ومن الفراغ الاجتماعي الذي ينشأ في أوساط البنيات الاجتماعية جراء الهجرات، ثم لتجاوز الغياب والغربة والحنين المرتبط بالفعل الهجروي الدولي.

وفي إطار تصور بحثي عام نرى من خلاله أن الهجرة الدولية تشكل وتهيئ فرصة للتغيير والتغيير الاجتماعي بمدينة خريبكة كمجتمع لانطلاق المهاجرين والمهاجرات نحو خارج المغرب، نتساءل عن التغيرات الاجتماعية النوعية التي تساهم الهجرة الدولية في إحداثها بهذا المجتمع من خلال استعمال وتوظيف تكنولوجيات التواصل الاجتماعي الذكية. فمن النتائج الأكيدة للهجرة الدولية نمو شعور متزايد بـ"الغياب والفراق" بين المهاجرين المقيمين بالخارج (أي مجتمع الوصول) من جهة، وذويهم الماكثين بخريبكة (أي مجتمع الأصول) من جهة أخرى. يترجم هذا الغياب إلى شعور بالغربة والشوق والحنين (أو "الوحشة" في مقابل الألفة والوُلف بالتعبير المحلي) للتفاعلات الاجتماعية المباشرة والملموسة وتفعيل العلاقات والأدوار والأنشطة الاجتماعية المعهودة فيما بين أعضاء الأسرة والعائلة وأفراد المحيط الاجتماعي القريب (جماعة الرفاق، جماعة الحي، أصدقاء، أقران، جيران...). هؤلاء جميعا يجدون أنفسهم أمام فراغات اجتماعية ونفسية هائلة أحيانا، فضلا عن الحاجة الاجتماعية الطبيعية التي تتمثل في ضرورة التواصل الاجتماعي بين أعضاء مجتمع لهم حياة اجتماعية مشتركة.

واقع الحال هذا يتجسد في حاجة البنيات الاجتماعية الصغرى بالمجتمع المحلي بخريبكة إلى التفاعل الاجتماعي؛ الشيء الذي يدفع الأفراد سواء المهاجرون وغير المهاجرين إلى البحث عن وسائل كفيلة بتجاوز وملء الفراغ النفسي والاجتماعي الذي يصير جزء من واقع اجتماعي يومي. هذه الوسائل لن تكون سوى تقنيات الاتصال والتواصل عبر التكنولوجيات الذكية الجديدة، التي وإن كانت رقمية إلا أنها تخلق تفاعلات اجتماعية مباشرة وسريعة، ولو أنها افتراضية فالوجدان والمشاعر تنفعل لها والحواس، بل والعلاقات الاجتماعية أيضا.

بناء على هذه الرؤية، نتساءل عما هي مميزات استعمال وتوظيف هذه التقنيات التكنولوجية الاجتماعية؟ وكيف تشتغل على ثنائي الغياب والحضور، وثنائي القرب والبعد، وثنائي الواقعي والافتراضي؟ ثم كيف تساهم في حفز التغيير الاجتماعي بمجتمع أصول المهاجرين بمدينة خريبكة؟ وما هي التحولات النوعية التي تحدثها بهذا المجتمع.

للإجابة عن هذه التساؤلات الإشكالية، سنعمد على بعض نتائج بحث ميداني جامعي أنجزناه خلال سنة 2015 بمدينة خريبكة. وقد شمل 185 مبحوثا بأداة الاستمارة و 60 مبحوثا بأداة المقابلة، بالإضافة إلى شبكات الملاحظة الميدانية العديدة.

1. الهجرة الدولية دافع لاعتماد التكنولوجيا التواصلية وحافز لمجتمع متصل دوليا

في هذا الصدد، تتعدد مظاهر وتجليات مساهمة الهجرة الدولية في استعمال هذه التكنولوجيات، فلهواتف والحواسيب وأجهزة التلفاز تشكل أول الأجهزة التي يتم تحويلها وإرسالها إلى مدينة خريبكة، مباشرة بعد اللحظات الأولى لوصول المهاجر إلى بلد المهجر إلى درجة انتشار رموز شركات الاتصالات الأوربية على الهواتف وفي الرقاقات والبطاقات (مثل Tim و Vodafone و Orange و SFR و Movistar وغيرها) بالسوق المحلية على الرغم من عدم توفر تغطية خدماتها بالمغرب. ولايزال الحضور كثيفا لهذه الأجهزة رغم اكتساح السوق من طرف ماركات جديدة Samsung و Apple و HP في السنوات الأخيرة.

لقد لاحظنا ميدانيا الدور المحوري الذي لعبته هذه الهجرة في نشر هذه التكنولوجيات التواصلية ليس بين الشباب وحسب وإنما بين الأمهات والآباء من كبار السن. وقد شجعت الهجرة بشكل مباشر استدامة الاتصال والتواصل بين مجتمع خريبكة ومجتمعات المهجر العديدة في "عصر الإنسان الرقمي". كذلك برزت إلى السطح العلاقات الاجتماعية الممتدة عبر المجالات والعبروطنية، وفي الوقت نفسه تراجعت حدة "الغياب المزدوج" الذي تحدث عنه عبد المالك صياد ليزداد "حضور" المهاجرين سواء ببلدان الوصول أو ببلدة الأصول. ومن نتائج ذلك أيضا، التقليل من حدة الأزمات النفسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي قد تخترق المشروع الهجروي لحل المهاجرين من أبناء هذه المدينة، وذلك من خلال المساندة والحضور الرمزي والاجتماعي لأفراد العائلة.

1.1. لمحة تاريخية عن استعمال وتوظيف الوسائل التواصلية المرتبطة بالهجرة إلى الخارج

في العقود الأخيرة لما قبل سيطرة الهواتف المحمولة والإعلام الفضائي والإنترنت، ظلت مجتمعات أصول المهاجرين تعول على الأخبار الشفوية التي كان ينقلها المهاجرون العائدون عن نظرائهم الباقين في المهجر، ثم عبر الرسائل الورقية، ليتم اقتناء واستعمال الكاسيت (الأشرطة المغنطة) السمعي، وكاسيت الفيديو ومحاوله تبادل اللحظات المسجلة بالصوت والصورة واللقطه المتحركة.

لا يمكننا اليوم إدراك قوة الرسالة الورقية والصور الفوتوغرافية الورقية وأشرطة المذياع وأشرطة الفيديو المغنطة التي تصور الحياة اليومية للمهاجر، وحدث قدم ساعي البريد، إلا حين يستطيع المرء تركيز مخيلته¹ (Mills, C.)

¹ نقصد، نوعا ما، المناداة على "المخيلة السوسولوجية" التي تقوم على رؤية الذاتي ضمن السياق المجتمعي، وامتلاك القدرة على تمثيل وتصور وموضعة الفردي ضمن الاجتماعي لفترة زمنية معينة. وهي بتعريف رايت ميلز: "ما يسمح لنا بفهم التاريخ العام والسيرة الذاتية والعلاقة بينهما ضمن المجتمع".

6-5: Wright, 2000) على لحظات يمتزج فيها فراق الأحباب، وعدم سماع صوتهم، ولا أخبارهم، ولا التعرف إلى أحوالهم، وعدم مشاركتهم في مناسبات الاجتماعية من فرح أو قرح، وعدم رؤيتهم لأبنائهم ولا الاهتمام بمسئولهم لمدة طويلة في مجتمع "تقليدي" غير حدائي ولا عولمي، أي في مجتمع تعتمد روابطه الاجتماعية على القرب، ومناسباته على الحضور الفيزيقي، بينما يكون الأفراد المهاجرون مغتربين في بلدان يتمثلها أفراد الأسرة من غير المهاجرين على أنها "بلاد الغربة" و"اللي امغرب في بلادات الناس ديما محكور" (أي محتقر) كما جاء على لسان أحد الآباء له عدة أبناء مهاجرين إلى أوروبا.

للعوي بقيمة الوسائل والوسائط التواصلية "القديمة" ومدى ثرائها كمصدر للمعلومات والأفكار وتصوير للحياة الاجتماعية المرتبطة بالهجرة الدولية، ينبغي الإشارة إلى أن مهد الدراسات السوسولوجية للهجرة الدولية بمدرسة شيكاغو من طرف عالم الاجتماع ويليام توماس كان للرسالة الورقية فيه دور محوري، حيث إن توماس كان يسير في طريقه ذات يوم فوق بصره على ورقة فلما تناولها وجدها رسالة بين أحد المهاجرين البولونيين وعائلته ببولونيا، مما استرعى وعيه السوسولوجي فاتخذها تقنية ضمن منهجه، بل ودعا المهاجرين عبر الصحف المحلية لكتابة سير حياتهم وبعث رسائلهم بمقابل مالي (Thomas, W. I. et Znaniecki F., 1998 : 45-98). ولقد اهتم كثيرا بهذا الموضوع أيضا السوسولوجي عبد المالك صياد الذي اشتغل بتقنية تحليلية ونباهة عالية على أشرطة الكاسيت والفيديو والرسائل والوصايا والأخبار الشفهية (عبر "ناقل الأخبار") التي شكلت صلة وصل وتواصل بين المهاجرين الجزائريين في فرنسا وذويهم في منطقة لقبائل بالجزائر. دراسات جعلت عبد المالك صياد يكتب ويبدع مفاهيم قوية في حقل دراسات الهجرات مثل: "عزلة جيل يتيم"، و"الغربة أو نظام إعادة إنتاج الهجرة الدولية"، و"الغياب المزدوج"، و"أوجاع الكلمات" أو "الأبناء الضالون" و"الهجرة وتناقضات الغيرية"... وغيرها².

واليوم، لقد اختفت هذه الوسائل التقليدية للتواصل من الواقع الاجتماعي الراهن، ومع ذلك قد يلجأ إلى استعمالها بعض المهاجرين في ظروف معينة؛ لذلك يصرح أحد المهاجرين قائلا "في بداية هجرتي كنت أرسل الرسائل" (استمارة رقم 61) ولو أنه هاجر إلى إسبانيا في سنة 2000. ورغم ذلك سنورد جانبا من التغيرات الاجتماعية التي فرضها التعاطي مع واقعة هجرة أفراد من الأسرة والعائلة وجماعة الأصدقاء فيما يتعلق باستعمال تقنيات الاتصال. فعلى امتداد عقود القرن العشرين، وجد دُور المهاجرين أنفسهم مجبرين إما على أخذ الصف منتظرين دورهم لاستعمال الهاتف الثابت أمام محل تاجر معين قصد التحدث إلى أقاربهم بالمهجر مقابل مبلغ

² Abdelmalek Sayad : La solitude d'une génération orpheline ; La double absence : Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré ; Les maux à mots de l'immigration ; Les enfants illégitimes ; Le Déracinement : la crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie ; L'immigration ou le paradoxe de l'altérité ; La vacance comme pathologie de la condition d'immigré : Le cas de la retraite et de la pré-retraite....

مالي، أو على الاشتراك في شبكة الخطوط الهاتفية المنزلية والتي كانت شروطها جد مكلفة وانتقائية إلى حدود سنوات 1990.

وفي العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وبسبب عدم قدرة الرسائل الورقية والكلمات الهاتفية على نقل صورة كاملة عن الحياة بين المهجر والبلدة الأصل، لجأ العديد من العائلات والمهاجرين إلى اقتناء آلات التصوير والكاميرا لتصوير فيديوهات عن الحياة سواء العائلية هنا أو المهجرية هناك وتراسلها فيما بينهم. ولا شك أن ذلك يعتبر ممارسات طارئة على هؤلاء الأفراد وهذا المجتمع، لتفرض بذلك الهجرة الدولية نوعا من التغير عن طريق استعمال هذه التكنولوجيات التواصلية التي غالبا ما كانت ترسل من الخارج حسب ما صرح به المهاجرون والمهاجرات في المقابلات.

2.1. المهاجرون الدوليون دائمو التواصل في عصر الإنسان الرقمي³

يكاد لا يفتأ الوطن، باعتباره هوية أسطورية، عن ممارسة نداء⁴ مستمر يحمل طعم الموروث والأصول، ويختزن التجربة الشخصية الأولى والأولية بالنسبة للجيل الأول، فيجذب المهاجرين نحو مشاركة أفراد المجتمع الأصلي في الحياة الاجتماعية. وحيث لا تتحقق هذه المشاركة الفعلية للحياة لكونها تتطلب المقام الفيزيقي والفعلية المحسوس والدائم، يصير التواصل الرقمي والافتراضي هو الوسيلة الفعلية والعملية لتحقيق التفاعل الاجتماعي الضروري لحياة الأفراد في مجتمعاتهم. ولتحقيق هذا المبتغى تكفلت الثقافة التواصلية بالربط والتواصل المباشر والترجمة الفورية وإحضار جوانب من الثقافات البعيدة عبر الصوت والصورة والحركة.

وفي عصرنا الراهن، عصر مجتمعات المعرفة والرقمنة، يعتبر ميدان التواصل والاتصال مجالا حيويا للتغير الاجتماعي، وجراء تطور الأشكال المستجدة للاتصال والتواصل الإلكتروني، أصبح كل منا يعيش في الساحة الخلفية للآخر أكثر مما كان عليه الحال في السابق (غيدنز، انتوني. 2006: 111). إن التقنية تعد اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، عاملا حاسما في توجيه التغير والتغيير الاجتماعي عموما والثقافي تحديدا، بل والمعيش اليومي كله، نحو مجتمع غير محاصر بمكان أو لغة وثقافة واحدة، وإنما أصبح مجتمع المعرفة والخبر الفوري والمعلومة والثقافة؛ حيث صار الحديث عن إمكانية إنشاء مجتمعات افتراضية (Société virtuelle)⁵ كآمنة في شبكات التواصل

³ نستعمل مفهومنا حديث الاستعمال "الإنسان الرقمي" كترجمة لـ Homo-numericus على غرار Homo-sociologique و Homo-oeconomicus و Homo-sapiens و Homo-faber وغيرها من المفاهيم المماثلة التي تحاول تحقيب نوعية الإنسان، تفكيراً وممارسة عامة، على مر العصور، بنظرة أركيولوجية وأنتروبولوجية.

⁴ نداء وجداني وثقافي واجتماعي تم ترسيمه في المغرب تحت شعار "مرحبا بكم في بلادكم" الذي اتخذته مؤسسة الحسن الثاني للمغاربة المقيمين بالخارج بمثابة شعار لعملية "مرحبا" التي تنظمها الدولة المغربية في صيف كل سنة خلال العود الموسمية للمهاجرين المغاربة.

⁵ نفضل استعمال "العالم الرقمي" Monde Numérique أو "Digital World" عوضا عن "العالم الافتراضي" Monde Virtuel، لكون المفهوم الأول يحيل إلى واقع مجرد لكنه لصيق بالواقع الطبيعي (الفيزيقي)، ولو أنه يتجاوزه عبر اللعب بالزمان والمكان والمسافات والحواس

الاجتماعي أمرا متقبلا واعتياديا. فهل يتعلق الأمر بمجتمع خيالي مفترض أم صورة رقمية غير مادية لنفس المجتمع الواقعي، وإن كانت رمزية وكامنة في شبكات التواصل والاتصالات الاجتماعية والموجات الكهرومغناطيسية.

من جهتها، تعمل الهجرة الدولية على تقوية الطلب على المعلومات والإعلام الدولي، كما مكنت من خلق علاقات اجتماعية ممتدة عبر المكان وعبر الثقافات وعبر الدول ثم عبر العالم على نحو أكيد. فالعائلة مثلا لم يكن بالإمكان أن نتصور أنها تجتمع خارج نفس الحيز المكاني. أما اليوم، فقد صار هذا الشرط متجاوزا، وأصبح أفراد الأسرة للمهاجر أو مجموعة أصدقائه كثيري التردد على التواصل الفوري عبر الحواسيب والهواتف في نفس الوقت في أكثر من مكان وأكثر من بلد، وعدة قارات، وبلغات مختلفة أحيانا، وأثناء إنجاز أنشطة يومية مختلفة.

ومن هنا نطرح السؤال الأساسي للإشكال المقترن بالأثر السوسيولوجي لتداخل عوالم الرقمية بعوالم الهجرات: فما هو المفعول العميق (الواقعي) وبعيد المدى لتشبيك (Réseautage) المهاجرين بذويهم وبالمجتمع الأصل؟ ثم ما هو الأثر الاجتماعي المترتب عن هذا التشبيك على مستوى المجتمع الخريبيكي؟

1.2.1. عولمة الهجرة وظهور المهاجر المتصل

في معرض الإجابة، وبالإضافة إلى تمديد العلاقات والروابط الاجتماعية الخريبيكية، وظهور ما يعرف بـ "الأسرة المعولمة" الممتدة والمنتشرة أفرادها عبر بقاع العالم، تساهم الشبكات التواصلية الرقمية، حسب دراسة الباحثة صابرينا مارشانديز (Sabrina Marchandise, 2012, p-p : 2-18)، في إضافة تقاطعات والتقاءات جديدة بين ميادين (sphères) الحياة المتعددة لدى المهاجرين المغاربة. فبوساطة هذه الشبكات المرتبطة عبر الأنترنت والهاتف يتمكن المهاجرون من تسهيل الحركة في المجالات المهجرية، وتسهيل الاندماج، وتمتين الروابط الاجتماعية بالمغرب، فضلا عن تداخل موضوعات عديدة من الدراسة، العمل، الأنشطة الجموعية، تبادل الخبرات، توفير الفرص المتاحة، الأخبار، ربط العلاقات الاجتماعية، تبادل المعلومات وتبادل مختلف العناصر الثقافية فيما بين البلدان المتعددة والمجتمع الخريبيكي.

في عالم اليوم أيضا، الذي يتحول فيه الوجود الاجتماعي ويتضاعف ليصير وجودين مادي وآخر رقمي عبر الالكترونيات واللوغاريتيمات، أدى الإقبال الاختياري أو الاضطراري على التقنيات التواصلية الحديثة إلى ظهور ما يمكن أن نطلق عليه "الفرد الاجتماعي الشبكي الرقمي". وبالنتيجة، وفي عوالم الهجرة الدولية ظهر "المهاجر المتصل Le migrant connecté" الذي تحدثت عنه الباحثة دانا ديمينسكو "Dana Diminescu"

المرتكزة عليها كالعوائق الثقافية أو السياسية أو القانونية أو المؤسساتية. في حين يحيل المفهوم الثاني على واقع وهمي. بينما هو واقع حقيقي، فقط له خصائص تختلف عن خصائص الواقع المادي القائم على المكانية والتفاعل الاجتماعي الحسي/ الجسدي.

في محاولتها بناء أطلس للجاليات الإلكترونية e-Diaspora⁶. هذا المهاجر المتصل يقضي جزء مهما وضروريا من وقته بيني أو يرمم جزء من وجوده على شبكات الاتصال والتواصل الرقمي فصار ينعت بكونه "المهاجر المرتبط بالخط الرقمي أو دائم الوجود إلكترونيا "Migrant Online"، خصوصا على شبكات التواصل الاجتماعي.

في هذا الصدد، تابعنا خلال البحث الذي أنجزناه بمدينة خريكة العديد من مجموعات المهاجرين المغاربة المتصلة والمتراطة عبر الأنترنت، والتي تعد بالعشرات. وقد لاحظنا أنها أكثر دينامية وحيوية. ونذكر بعضها هنا:

على الفيسبوك: مغاربة إيطاليا؛ مغاربة قطر؛ مغاربة العالم؛ مغاربة كندا؛ Marocains de France؛ ...

على الواتساب: مجموعة ciao بإيطاليا؛ مجموعة bladi؛ مجموعة fête ...

نشير كذلك إلى أن الباحث نفسه وظف إعلاميات التواصل المتعدد لإجراء المقابلات مع مهاجرين ومهاجرات متواجدين في كل من هولندا، فرنسا، إيطاليا، إسبانيا، رومانيا، الولايات المتحدة الأمريكية، وألمانيا، ثم إنجلترا (انظر **Erreur ! Argument de commutateur inconnu** أسفله)، وصفحة على الفيسبوك بعنوان **Migration⁷**.

2.2.1. تكثيف التواصل الشبكي بين خريكة ومناطق المهاجرين ببلدان المهجر

لقد تحدثنا⁸ عن مفعولين أساسيين للهجرة الدولية في ارتفاع الطلب على وسائل الاتصال والتواصل لاسيما الحواسيب والهواتف والإنترنت، ليحدث تغيير أول متمثل في استبدال الرسائل الورقية البريدية والتواصل المتقطع وضعيف التردد بتواصل فوري لحظي مرتفع التردد عبر الهواتف المحمول والإنترنت، ليس فقط سمعيا بل بالصورة المباشرة والحركة (أو اللقطات الماثلة في مقاطع الفيديو)، حيث يتجاوز التواصل بين المهاجرين وذويهم عوائق الزمان والمكان والكلفة المالية⁹. ميدانيا، عبر حوالي 8.65% من المبحوثين فقط عن استعمالهم الرسائل البريدية لظرف معين كإرسال وثائق أصلية أو استعمالها سابقا قبل ازدهار التواصل الرقمي، بينما يوظف 97.84% من المهاجرين المكالمات الهاتفية العادية، أما التقنيات الحديثة الأخرى في الاتصال والتواصل فقد وردت أرقامها الإحصائية كالتالي: (**Erreur ! Argument de commutateur inconnu** أسفله)

⁶ يستعرض الموقع <http://www.e-diasporas.fr> نماذج من مبيانات وخطاطات تبرز دور الشبكات التواصلية الرقمية في تجميع الشتات المقترن بعملية الهجرة الدولية.

⁷ على الرابط: (20/08/2018) ; <https://www.facebook.com/Migration-515140551855075/>

⁸ الحديث هنا عن دور التكنولوجيات التواصلية في تحويل الإنسان إلى ذلك الحاضر الغائب، بحيث إنك تجلس مع فرد معين أو جماعة، فجأة يرن هاتف أحدهم، في تلك اللحظة، يحدث ثقب أو نافذة في مجعكم فيتحول المهاتف من حاضر جسدا وذهنا إلى شخص ناقص الحضور، شخص حاضر جسدا ولكنه غائب فكريا. كما أن التكنولوجيات التواصلية أصبحت أكثر جذبا للانتباه والاهتمام من طرف مستعملها مقارنة بمدى اهتمامه بالأشخاص الحاضرين فعليا وجسديا بجانبه.

⁹ كذلك ساهم التطور التكنولوجي الذي عرفه عالم الاتصال والتواصل في تجاوز نقل الأخبار والمعلومات عن الأحوال المعيشية عبر الوسطاء أي المهاجرين الزائرين للمغرب، وصار اتصالا وتوصلا مباشرا كما أسلفنا.

جدول 1: النسب المئوية لاستعمال وسائل الاتصال والتواصل وسط المهاجرين الخريجين.

Fréq.	Nb. cit.	نوعية وسائل التواصل
8,65	16	رسائل ورقية
97,84	181	هاتف
17,84	33	بريد إلكتروني
45,41	84	فيسبوك
52,43	97	اسكيب، تانغو، فايبر
7,03	13	واتساب
0,54	1	بدون جواب
0,00	0	غير معني
	185	TOTAL OBS.

مصدر: بحث ميداني، حيتومي، 2015.

أكثر من ذلك، لقد التقينا مهاجرين ينتقدون عدم توظيف هذه التقنيات في الإدارة العمومية أو لدى الشركات؛ فالتواصل بين الإدارات والمرتفقين يسهل من خلال التواصل الإلكتروني، ويكون منظماً مسبقاً عبر اللجوء إلى أخذ المواعيد مثلاً وسحب مجموعة من الوثائق أو إرسال الطلبات أو تسجيل شكايات أو غير ذلك.

وبالمقابل، لا بد من الإشارة إلى التعثر الذي يسم سلوكات بعض المهاجرين مقارنة بنظرائهم من غير المهاجرين على مستوى استعمال التكنولوجيات الذكية. وكنموذج نورد هنا حالة أحد المهاجرين الذي كان يقتني مجموعة من الحواسيب من إيطاليا لبيعها بالمغرب، لكنه يتفاجأ بأن الشباب المستهدف بخريجة يرفضون شراءها لأنها ذات مواصفات متجاوزة، وهنا يندهش هذا المهاجر متسائلاً: "هل الشباب المغربي على مواكبة لعالم التكنولوجيا الرقمية أكثر من الإيطاليين!" (مقابلة حوارية رقم 13). فيما بعد قرر إعادة تلك المنتوجات لبيعها هناك مرة ثانية. كذلك نجد مهاجرين آخرين أذكى استعمالاً للتكنولوجيا الرقمية مقارنة بوضعهم قبل الهجرة، ومقارنة بزملائهم الذين لم يهاجروا.

نصل إلى البعد الثالث الكامن وراء ارتفاع استعمال المهاجرين بالمهجر وأقاربهم بالمغرب للوسائل التكنولوجية الذكية في التواصل، و"استيطانهم" العالم الرقمي (أو الافتراضي والإلكتروني). في نظرنا يعود هذا الاندفاع القوي نحو هذا العالم إلى الخصائص التفضيلية التي تتيحها هذه التقنيات الذكية؛ فهي باختصار تتميز بكونها لحظية، تفاعلية، مباشرة، سريعة، منتظمة، رخيصة التكلفة وسهلة الاستعمال، بالإضافة إلى إمكانية التواصل في البيت أو في الفراش أو على المائدة أو في الشارع بكل يسر. كما أنها تمكن من تجاوز الوسطاء سواء ساعي البريد أو مهاجر آخر. ومنه نخلص إلى أن التواصل الاجتماعي الافتراضي تمكن من تحقيق "التواصل الشبكي" (Communication)

(en réseau) القادر على دمج المهاجرين وأهاليهم، وكل من له علاقة بالمهجرة، في عالم رقمي دائم الاشتغال عبر الأنساق الشبكية (Système-réseau)¹⁰.

في الأخير، نستنتج أن المهاجر يتحول إلى "إنسان متصل" و"شبه حاضر بالمجتمع الأصلي" بخربكة عن طريق آليات وشبكات التواصل، وتحول إلى "إنسان رقمي" مجبر على استعمال التقنيات التواصلية الذكية لرأب المسافة الاجتماعية أو الصدد الحادث بينه وبين مجتمع الأصول، مما دفعه إلى المساهمة في تشبيك أفراد عائلته وربطهم عبر شبكات الاتصالات بمجتمعات المهجر ونقل لقطات حية من أنماط الحياة المهاجرة. يحيلنا هذا المعطى على ضرورة البحث في "الوجه الثاني من التغيير الاجتماعي الناجم عن الانخراط في عالم الرقمية"، وهو التغيير الذي افترضناه حادثا على مستوى الطرف الثاني للتواصل والاتصال؛ أي ما هي مظاهر التغيير الذي يحدث بالمجتمع الخريكي نتيجة مفعول التقنيات الحديثة المستعملة كالهاتف الذكي والحاسوب المرتبط بالإنترنت في التواصل فيما بين الأهل والأقارب بخربكة والمهاجرين والمهاجرات المقيمين بالخارج؟

3.2.1. قرار قانوني واقتصادي لا يعي واضعوه أثره الثقافي والاجتماعي السلبي

ثمّة ملاحظة يتوجب الانتباه إليها بخصوص عالم التقنيات التواصلية والشبكات الاجتماعية الرقمية، وتتجلى في كون هذا الميدان يعرف تغيرا كبيرا وتطورا سريعا منقطع النظير، ولا أدل على ذلك مما يمكن تسجيله بصدد (جدول 1 أعلاه) الذي كان فيه حضور استعمال "الواتساب" ضئيلا جدا لم يتجاوز نسبة 7.03% سنة 2014، بينما هو اليوم نظنه يقارب 100% من مستعملي تلك الهواتف. ونظرا "لمجانته" وكثرة الطلب عليه واستعماله، فقد استمال رغبات الأفراد عبر العالم وفي طليعتهم المهاجرون الدوليون، وسحب جزئيا البساط من تحت المكالمات الهاتفية مرتفعة الثمن لاسيما الدولية، حتى أكد أحدهم قائلا "الهاتف في استعمال متناقص بيننا" (استمارة رقم 20).

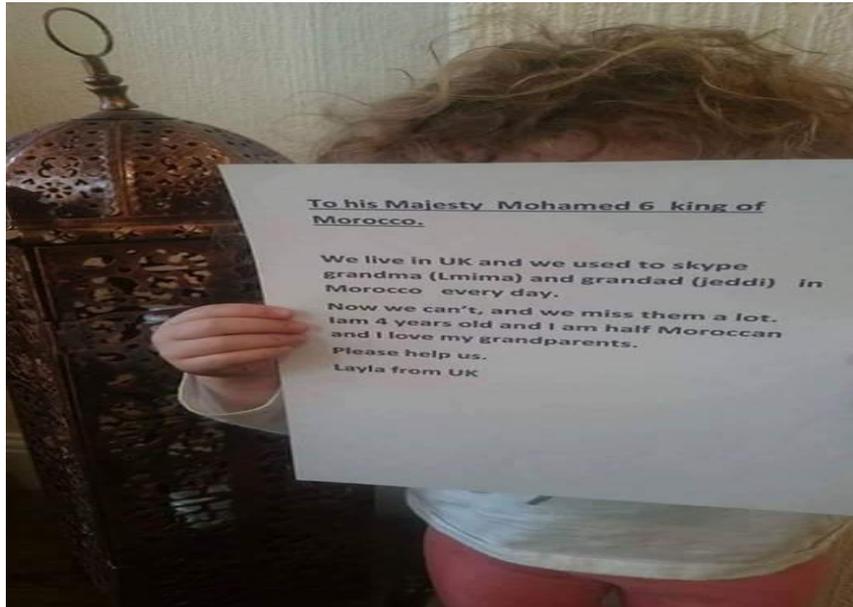
كذلك، وعطفا على الملاحظة السابقة، ينبغي تسجيل حدث مغربي مهم يتمثل في منع بعض أنواع التواصل الرقمي على غرار مجموعة من البلدان. ف في شهر فبراير من سنة 2016، قررت شركات الاتصالات المغربية بالاستناد إلى أحد القوانين المسنة سنة 2001، وبمساندة الهيئة الوطنية لتقنين المواصلات، قررت حجب خدمة VoIP أي منع خدمة المحادثة المباشرة بالصوت والصورة المتحركة (فيديو). وقد افترضنا أن لهذا القرار، بلا شك، علاقة متوترة مع الهجرة الدولية. وهو الافتراض الذي أوجب على الباحث تتبع كفاءات تعاطي المهاجرين (بعض المهاجرين) وذوويهم مع هذا القرار الذي استندت فيه شركات الاتصالات الثلاث إلى الفقرة 1 من القرار

¹⁰ أنظر الموقع الإلكتروني: Woe-aspors.fr/wp/marchandise.html

ANRT/DG/N°04-04 الصادر عن الوكالة الوطنية لتقنين المواصلات، والذي بدوره استند على الفقرة 83 من القانون رقم 24-96 المتعلق بالبريد والاتصالات.

لم تتم الاستجابة للمطالب الشعبية، لا سيما في أوساط المهاجرين كما تعبر عن ذلك (صورة رقم 1 أسفله)، بضرورة رفع الحجب والحظر عن خدمات الصوت والصورة لتطبيقات واتساب المجانية. لكن وبعد مدة ليست بالقصيرة، وبمناسبة تنظيم المغرب لفعاليات قمة المناخ COP 22¹¹ بمدينة مراكش، ستعلن الهيئة المذكورة، بتاريخ 24 أكتوبر 2016، عن إعادة تشغيلها لخدمة VoIP على Whatsapp و Viber و MSN وغيرها من المواقع والبرمجيات؛ الشيء الذي استفز مستعملي خدمات الاتصالات المغربية لينتشر هاشتاغ ناري ونقدي على مواقع التواصل الاجتماعي ينتقد بشكل لاذع القرار السابق الذي لم يُحترم فيه رغبة المغاربة ولم تؤخذ احتجاجاتهم بعين الاعتبار من طرف الهيئة والشركات المعنية، ثم قاموا ببعث الهاشتاغ إلى جموع الوفود والشخصيات الوافدة على المغرب ومراكش يفضحون فيه "القمع وغياب الحرية وحرمانهم من خدمات VoIP" مما كانت له تداعيات بين الفاعلين السياسيين أولها إقالة رئيس الوكالة الوطنية لتقنين المواصلات.

صورة رقم 1: طفلة من أسرة مهاجرة تعبر عن حاجتهم الماسة لخدمات سكايب



مصدر: وصلت إلى الباحث عن طريق مجموعة مهاجرين على واتساب، وفايسبوك، 2016/03/17.

وإذا ما استحضرننا الخلاصات السابقة حول دور الاتصالات والتواصل الاجتماعي الرقمي، خاصة مفعولها الاجتماعي في تقوية الروابط الاجتماعية العائلية في وجه تحديات العولمة والحداثة الغربية في واقع الأسرة النووية

التي عقدت فعاليتها بمدينة مراكش خلال الفترة الممتدة من Atlas COP22 أو COP22 اتفاقية الأطراف حول التغيرات المناخية المختصرة بـ¹¹ 05 نونبر إلى 11 نونبر 2016.

والأشكال المستحدثة من "اللا أسرة"، سيتبين الثمن الباهض الذي سيدفعه المهاجرون المغاربة هناك وأسرههم هنا على المستوى الاجتماعي والثقافي في المدى المتوسط والبعيد. بعبارة أخرى: إن حرمان الأفراد والفاعلين الاجتماعيين من التواصل الاجتماعي "الفعال" في مختلف صورته يشكل مدخلا لهشاشة التماسك الاجتماعي، لاسيما حين يتعلق الأمر بفئات مهاجرة وبعيدة عن المجتمع الخريبيكي.

1.3.1. التفاعل الاجتماعي مع المهاجرين يضطر الأهالي لاستعمال التقنيات التواصلية الذكية

للإجابة عن السؤال السابق، اعتمدنا على تقنيتي الملاحظة والمقابلة مع المعنيين من غير المهاجرين، بحيث زرنا خمسة مقاهي-إنترنت (Cyber-café) وثلاث محلات لبيع لوازم الهاتف والحاسوب والإنترنت ثم أنجزنا مع أصحابها مقابلات وأحيانا حوارات مقتضبة. كما قمنا بإيجاز ملاحظات ميدانية للحظات ولقاءات تواصل، ولعمليات اقتناء بعض الأجهزة الرقمية التواصلية من طرف أفراد وعائلات المهاجرين.

1.3.1.1. المجتمع الخريبيكي: من مجتمع مبني عن قرب إلى مجتمع متمدن وشبكي لأفراد متواصلين عبر

عدة أوطان

من بين النظريات التي تحاول تفسير الارتفاع الكمي في حركية الهجرة وتدفعاتها، نجد نظرية العولمة باعتبارها تقوم على دراسة الظواهر في علاقتها بمجموع "الامتدادات الترابية بين الأمم، وبين الأنشطة الإنسانية والأنظمة السياسية على نطاق عالمي. وتشير كذلك إلى التحويلات والتبادلات الدولية للبضائع، والخدمات، واليد العاملة والمعارف والدرابات"¹². والهجرة الدولية كجزء من ظاهرة العولمة استفادت من تقاطع أو التقاء عدة روافد شكلت في حد ذاتها ثورات معاصرة بشكل مادي في العالم، لعل أبرزها ثورة التقنيات الرقمية والمواصلات وما رافقها من كثافة التنقلات والاندماج السريع والكثيف في شبكات التواصل الاجتماعية.

من ناحية أولى، إن الهجرة الدولية من حيث كونها عبورا للحدود بين الدول وبين الثقافات وبين المجتمعات كما بينا سابقا، فإنها استفادت من الإمكانيات (اللوجيستية) والفرص التي توفرها العولمة، وفي نفس الوقت ساهمت في تطور وسائل النقل والسفر و "الثاقف الاجتماعي بالممارسة اليومية" وتنوع أفراد المجتمع بعيدا عن الهوية الوحيدة المنسجمة. نذكر هنا مثال إنشاء عدة شركات الطيران العالمية خلال العقد الأخيرين منها "العربية للخطوط الجوية AirArabia و EasyJet و Jet4you التي شرعت في خفض أثمان الرحلات بين المغرب وأوروبا الجنوبية إلى أقل من 500 درهم أحيانا للرحلة الواحدة. وهو الشيء الذي شجع عودة المهاجرات والمهاجرين لزيارة المدينة،

¹² انظر الموقع الإلكتروني: http://www.myria.be/files/Glossaire_de_la_migration.pdf؛ (2016/02/02).

كما شجع الأهالي لا سيما الآباء والأمهات من التردد على المهجر الأوربي وأحيانا المكوث به لفترات تمتد إلى
شهور¹³.

ثانيا، وعلى النقيض من هذا القرب وتردد الزيارات بين المهاجرين وعائلاتهم ومجتمعهم الخريبيكي، إن الهجرة
الدولية، وكل هجرة، تعد بمثابة ابتعاد عن موطن معين، غالبا ما يكون هو الأصل، مما يؤدي إلى "نشوء مسافة
وفراغ" في الزمان (الزمن الاجتماعي والنفسي) وفي المكان (باعتباره مجالا اجتماعيا) وعلى مستوى التفاعل
الاجتماعي المبني عادة على القرب. بل إن ثمة حدودا ترسم، وأحيانا بواسطة الأسلاك الكهربائية الصاعقة، لأجل
الإيقاع بالناس في هذه **المسافة والغياب**. كما ترسم حدودا أقوى سمكا وأكثر عددا بشكل رمزي ومعنوي على
مستويات الثقافة الاجتماعية، كالاختلاف اللغوي الذي يؤدي إلى "تعطيل" اللغة الأصلية للمهاجر مثلا، أو
الاختلاف على مستوى التعابير اليومية والقيم المتداولة والمشاعر والأحاسيس والتمثلات الاجتماعية. ليس هذا
الواقع خاصا بالمهجر، وإنما يتعرض له المهاجرون هنا بخريبيكة أيضا، لذا نجد الكثير منهم يؤكدون أنهم يجدون
المجتمع الخريبيكي يتغير مقارنة بما تركوه عليه، بحيث تتداول كلمات وأفكار وعبارات جديدة تسبب لبعض
المهاجرين إحساسا بالغرابة هنا أيضا، لاسيما بالنسبة للمهاجرين الذين لا يعودون لزيارة مجتمعهم الأصلي إلا بعد
مرور عدة سنوات قد تتجاوز عقدا أو عقدين من الزمن.

والهجرة الدولية بهذا المعنى هي نوع من عبور وتجاوز الحدود المتنوعة (جغرافيا، ثقافيا، اجتماعيا....)، لكنها تتضمن
ميكانيزمات تنتج مسافات وحدودا جديدة بين المهاجر وثقافته ومجتمعه، وكذلك بين المجتمع الأصل وأفراده الذين
غادروه. هنا يأتي دور التكنولوجيات السفرية والتواصلية لـ"إعادة ترميم العلاقات الاجتماعية" بين أفراد المجتمع
المتباعدين، وتمديد هذا المجتمع عبر علاقات وروابط رقمية وافترضية.

وبالتالي، نستنتج أن المجتمع الأصول في هذه الحالة يتعرض لتغير اجتماعي نوعي إضافي، فهو لم يعد مبني على
علاقات وروابط اجتماعية متقاربة في المكان، وفي المعيش اليومي المشترك والموحد. لقد عرفت بنياته الاجتماعية
نوعا من التمدد، وتحول أفراد المهاجرون إلى "أذرع أخطبوطية" أو عناصر عقدية لشبكات اجتماعية مرتكزة على
التواصل عن بعد عوض التساند عن قرب. ومنه يتضح أن المجتمع الخريبيكي لم يعد مقتصر على أفراد المتساندين
بروابط اجتماعية قصيرة، وإنما صار متمددا في أنساق شبكية مترابطة عبر علاقات اجتماعية دولية رهيبة قد
تعصف بها أحيانا مجرد تقطعات في التيار الكهربائي أو انتهاء الرصيد المالي من الهاتف أو عدم كفايته لضمان

¹³ نذكر هنا حالة أم هاجر كل أبنائها الثلاثة بأسرهم الصغيرة، فبقيت وحيدة بالمدينة مما دفعها إلى الهجرة والاستقرار مع أبنائها بشمال إيطاليا. نذكر كذلك حالة أم لها بنت واحدة تزوجت بمهاجر فرافقته إلى فرنسا، لكن وبعد وفاة زوج ابنتها التي بقيت وحيدة، قررت الأم الهجرة للاعتناء بأطفال ابنتها بالمهجر رغم كل الصعوبات.

استمرار خدمات الأنترنت. بعبارة أخرى، يسير المجتمع الخريكي بواسطة مهاجريه إلى اعتماد روابط وعلاقات اجتماعية هشة ومتمددة وتحتاج إلى ترميم دائم.

2.3.1. المناداة على التواصل الرقمي لتعديل روابط وبنيات اجتماعية أضعفتها الهجرة الدولية

لاشك أن الوضعيات الاجتماعية المترتبة عن الهجرة من قبيل "غياب الأب والزوج والأخ والأخت أو أحدهم أو بعضهم" عن أفراد الأسرة الآخرين لمدة طويلة يخلق وضعاً غير مقبول اجتماعياً وثقافياً، مثال ذلك شاب يتزوج مباشرة بعد عودته السنوية، ثم يفارق عروسته وأسرته الناشئة بعد مدة وجيزة ولمدة قد تتعدى السنة والسنتين. لذلك يتأكد أن الهجرة، وبسبب الغياب والفتور الذي يترتب عنها، قد تسببت في نشوء وضعيات أزمة ومشكلات اجتماعية يلج بعضها قاعات المحاكم بالمدينة¹⁴.

وبديهي، كما وقفنا على ذلك ميدانياً، أن يرفض المهاجرون والمهاجرات وذووهم تلك المسافات والحدود التي تنشأ عن الهجرة الدولية، بله تلك الوضعيات التي تعصف باستقرار مجموعة من الأسر أو تعرضها لمشاكل وأمراض اجتماعية طارئة على المجتمع الخريكي. هذا الرفض يدفعهم إلى استثمار جزء من مالهم وجهدهم في اقتناء أو تمويل أو إرسال معدات وأجهزة الاتصالات والتواصل، واستثمار جزء من وقتهم، خصوصاً أيام السبت والأحد ومساء كل يوم تقريبا، في الاتصال والتواصل مع الأقارب سواء بالمغرب أو مع أقارب مهاجرين إلى بلدان أخرى. لقد وقفنا خلال بحثنا على إنشائهم لمجموعات (Groups) عائلية، على الفيسبوك أو على الواتساب أو سكيب أو فايبر، وانضمام بعضهم لمجموعات أخرى وطنية غير محصورة بمدينة معينة. (انظر صورة رقم 2 أسفله)

للإشارة، فقد بعث الباحث طلباً لرئيس المحكمة الابتدائية بخريكة عن طريق نقيب هيئة المحامين بالمدينة بغرض الاطلاع على ملفات وقضايا¹⁴ المهاجرين للسنتين 2014 و2015، لكن بقي الطلب بدون جواب أو رد.

صورة رقم 2: مجموعات تواصل اجتماعي بين المهاجرين المغاربة ببلدان أوروبا



مصدر: الموقع العالمي للتواصل الاجتماعي فيسبوك، 2015/04/16

يبدو أن الهجرة الدولية تحفز المهاجرين وأقاربهم، إن لم نقل تجربهم، على الاتصال والتواصل باستعمال أحدث التقنيات في هذا المجال. وجراء ذلك تكون الهجرة الدولية بمثابة عامل أساسي في الدفع بالمهاجرين من ناحية، والأقارب (لاسيما الإخوة والزوجة والأم) والأصدقاء من ناحية ثانية لولوج عصر الاتصال والتواصل الرقمي على نحو متميز بطابع الواقع اليومي للمهجر. ومن ناحية ثالثة، فإن ارتفاع الطلب على التجهيزات التواصلية الرقمية قد أدى إلى تكاثر محلات الأنترنت ومحلات بيع الهواتف، لاسيما خلال العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، أي قبل انتشار المنتجات الذكية لشركة سامسونغ وآيفون، وقبل الانخفاض الكبير والسريع لتكلفة الخدمات الهاتفية وخدمات الأنترنت. بالتأكيد لا يمكننا ضبط إحصائيات الانخراطات ولا كميات الاتصالات ولا تتبع تطورها الزمني بدقة بالنظر إلى صعوبة ذلك من جهة، ولكون هذا الإشكال ليس موضوع بحثنا المركزي.

من الواضح أن تحقيق التواصل والاتصال فيما بين المهاجرين ومجتمعهم الخريبي يستوجب **التزود والتجهيز بالمعدات التقنية اللازمة**، بغاية التخفيف من حدة الشعور بالغربة بالنسبة للمهاجرين، والتقليل من حجم الشعور بالفراق من طرف الأهل الماكثين بالمغرب، ثم لتمتين العلاقات والروابط الاجتماعية والثقافية بالمجتمع الخريبي، أو لمعالجة المشكلات الاجتماعية الأسرية أو العائلية التي تنشأ بين الفينة والأخرى. لا سيما تلك التي تترتب عن عدم إدراك أو تقبل الأهل للوقائع الجديدة التي تنتجها الهجرة الدولية، ومنها بالأساس: هجرة جميع الأبناء وأسرههم أي الأحفاد ومكوث آباء وأمهات الجيل الأول من المهاجرين في عزلة ووحدة لا نظير لها في تاريخ هذا المجتمع الذي بُني على خدمة الأبناء لآبائهم ومكوثهم تحت سلطتهم لكن الكبار والمسنين اليوم يجدون أنفسهم أمام وضع لم يسبق أن عايشوه أو تخيلوه حتى.

لا ريب طبعاً في أن هذا المجتمع ومهاجريه المعدودين بعشرات الآلاف سيسرعون إلى توسل تكنولوجيايات التواصل الاجتماعي الرقمي والاعتماد عليها. لكن على الرغم من السهولة التي تصاحب التقنية التواصلية الجديدة، فإنها تحتاج لا محالة إلى نوع من المهارة والمعرفة لاستعمالها، فلهواتف الذكية تشتغل غالباً بتقنية "البصمة" واللوحات والشاشات الحساسة (Tactile). وبإمكاننا أن نتساءل هنا عن التميز الحاصل بين المهاجرين وذويهم من جهة، وبقية السكان ممن لا علاقة لهم بالهجرة¹⁵ من جهة ثانية. والجواب في نظرنا يقوم على ثلاثة مستويات: الأول، ويتعلق بالفئات العمرية والجنس والمستوى التعليمي، بينما يتعلق الثاني بنوعية قرار الانخراط في العالم الرقمي، أما الثالث فيهم نوعية ومميزات التواصل والاتصال الرقمي العابر للمجموعات.

بالنسبة للبعد الأول، نسجل أن المعطيات المستقاة من الميدان، تبرز اندفاع **الإناث** والأمهات والجدات إلى تعلم الولوج إلى مواقع على الإنترنت وتشغيل برامج التطبيقات (Applications) والبريد الإلكتروني، في الحين الذي لولا عامل الهجرة وفك الغربة أو البعد لما انخرطن في هذا التعلم التقني والرقمي، ولا أدل على ذلك من تعثرهن في برامج محو الأمية النظامية. يتأكد ذلك ميدانياً في حالة غياب عامل الهجرة إلى الخارج، فإننا نلاحظ عدم تعاطي هاتين الفئتين للمعلومات قصد الاتصال والتواصل. بالإضافة إلى ذلك، تسجل المعطيات الميدانية، عبر تأكيدات المهاجرين والمهاجرات عن آبائهم وأمهاثهم، وعبر زيارتنا الميدانية لمحلات الأنترنت، أن وضعية الهجرة الدولية تشكل عاملاً حاسماً بالنسبة للفئات العمرية التي تضم كبار السن (خمسون سنة فما فوق).

كذلك، لاحظنا أن أكثرية الجالسين في محلات الأنترنت للمحادثة مع الأبناء المهاجرين هن **إناث؛ زوجات** وأبناؤهن، أو أمهات، أو أخوات وصديقات. وأكد هذا أصحاب مقاهي وفضاءات الأنترنت، بكون "الرجال الكبار"، أي فئة الأشخاص ذوي أعمار تناهز خمسين سنة فما فوق، لا يرتادون هذه المحلات مثلما ترتادها نساؤهم. ومن الملاحظ كذلك أن الهجرة الدولية تضطر الآباء والأمهات إلى استعمال الحواسيب والهواتف الذكية، وولوج عوالم الفضاء الرقمي عبر تعلم تشغيل تطبيقات الأنترنت مع العلم أن هذه الفئة العمرية تضم في غالبيتها أفراداً أميين (مقابلات حوارية رقم 12).

أما المستوى الثاني، والذي يخص نوعية قرار توظيف تكنولوجيايات التواصل، فإن الاختلاف فيه يرجع إلى الاضطرار الذي يتعرض له أفراد عائلات المهاجرين، بسبب "الوحشة"¹⁶ أو الفراق والاشتياق، بينما لا دافع مهم يضطر باقي الآباء والأمهات للتعب من أجل استعمال هواتف أو حاسوب ذكي.

¹⁵ لا سيما أننا في عصر الرقمية وشبكات التواصل التي عولمت العالم ويتعاطها كل الناس عموماً، اختياراً أو اضطراراً. فضلاً عن ذلك، فالهجرة الدولية، وما تعنيه من غربة، دفعت المهاجرين وذويهم وأقاربهم غير المهاجرين إلى تعاطي وانخراط أكبر وأسرع في عالم الرقمية التواصلية، منذ بداية انتشارها في العقد الأول من القرن الحالي.

¹⁶ بالتعبير المحلي الدارج، تحيل كلمات "توحشته، الوحشة" إلى الحالة الوجدانية والاجتماعية التي يشعر بها الفرد تجاه فرد آخر، والتي تعبر عن الشوق للقائه، لأنه سافر وطالت غيبته حتى صار غريباً أو غير متعرف عليه.

وأما المستوى الثالث من الاختلافات فيعود إلى مضامين الاتصال والتواصل فيما بين المهاجرين وأهاليهم من جهة والمضامين التي قد يتطرق لها آباء غير المهاجرين عموماً. إن الهجرة الدولية، وما يترتب عنها من نوعية الحياة بالمهجر، وما يترتب عن غياب المهاجرين والمهاجرات هنا بالمجتمع الأصلي، تظل المواضيع الرئيسة في كل تواصل؛ وإلا ما الداعي لبذل الجهد من طرف المسنين كي يتواصلوا باستعمال البرمجيات بأنواعها المنتشرة حالياً مثل: Msn و Skype و Facebook و WhatsApp و Tweeter و Viber و Imo و Instagram.

2. انتشار التكنولوجيات التواصلية ونشوء الأسرة المتصلة والممتدة عبر الأوطان في خريكة

زيادة على ما تقدم من آليات اجتماعية رقمية تساهم في تشكيل مجتمع خريكي ممتد دولياً وعبر-وطنياً، بإمكاننا اليوم الحديث عن بداية تشكل "العائلة المتصلة والمترابطة رقمياً أو افتراضياً فيما بين خريكة وعدة مجتمعات مهاجرة" على منوال مفهوم "المهاجر المتصل" المذكور أعلاه، وهي أسرة معومة يتوزع بعض أفرادها على دول أخرى بالإضافة إلى المغرب، وتتمدد روابطها النفسية والاجتماعية عبر عدة بلدان، وفي الآن نفسه. (انظر صورة رقم 3 أسفله)

صورة رقم 3: أربعة أفراد (اثنان بالمهجر واثنان بالمغرب) من نفس الأسرة يتواصلون فيما بينهم عبر .skype



مصدر: بحث ميداني، (2015/11/10)

1 مهاجر متصل من باريس بفرنسا؛ 2 أخ مهاجرين-من الرباط؛

3 والدة مهاجرين من خريكة-المغرب؛ 4 مهاجر متصل من بولونيا بإيطاليا

1.2. نماذج من واقع التواصل الاجتماعي الهجروي

فيما يلي، نعرض لنماذج أخرى عن دور التواصل الشبكي *Communication en réseau* في تشبيك الهجرات الدولية، وتشبيك الأفراد والعائلات والمجتمعات والثقافات فيما بين مدينة خريكة ومناطق العالم لاسيما إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، تشبيك نستطيع تصور حجم ونوعية التحويلات الذهنية والثقافية والمادية التي يتم عبورها وتداولها فيما بين المجتمعات، بيد أننا لا نستطيع أن نتصور مآلاته على المدى البعيد أو تحديد مفعوله بدقة في البنيات الاجتماعية والثقافية، لاسيما والعصر الرقمي مايزال في بداياته.

1.1.2. الحالة الأولى: محل تجاري مجهز بالكاميرات ومرتبطة بالإنترنت

تؤكد مسيرة محل متعدد الخدمات (استمارة رقم 185) يضم متجرا ومجزرة وسوقا ممتازا مصغرا، وبجانبه محلا مطعما للمأكولات السريعة، تؤكد هذه السيدة على أنها نصبت كاميرات في جانب من المحل وربطته بالإنترنت لتتابعه حتى حين تكون بالمهجر بإيطاليا. إننا هنا أمام حضور آخر للمهاجر، حضور فاعل ومتدخل عن قرب في المجال الخريكي على الرغم من كونه متصلا "عن بعد" ومتواجدا بالمهجر.

2.1.2. الحالة الثانية: أمهات مسنات وغير متعلقات ينخرطن في مجتمع الرقميات الافتراضي

هنا نورد أيضا مثالا آخر وقف عليه الباحث عند محل بيع مستلزمات الكمبيوتر والهواتف الذكية بوسط مدينة خريكة. "إمرأتان تجاوز عمرهما الخمسين عاما تقومان باقتناء حاسوب مع مطالبة صاحب المحل ببرمجة برنامج Skype، وتثبيت الكاميرا مع الكاسك" (بطاقة ملاحظة رقم 12، لم يكن التصوير ممكنا)، وحين سؤالهما عن الهدف من عملية الاقتناء، أكدت كل منهما على ضرورة تعلم واستعمال الأنترنت والحاسوب لتسهيل التواصل مع الابن والبنت المهاجرين بفرنسا.

صورة رقم 4: نساء غير متعلّقات يتواصلن مع مهاجرين عبر موقع التواصل سكايب



مصدر: البحث الميداني، 2015/03/20 و 2013/11/04

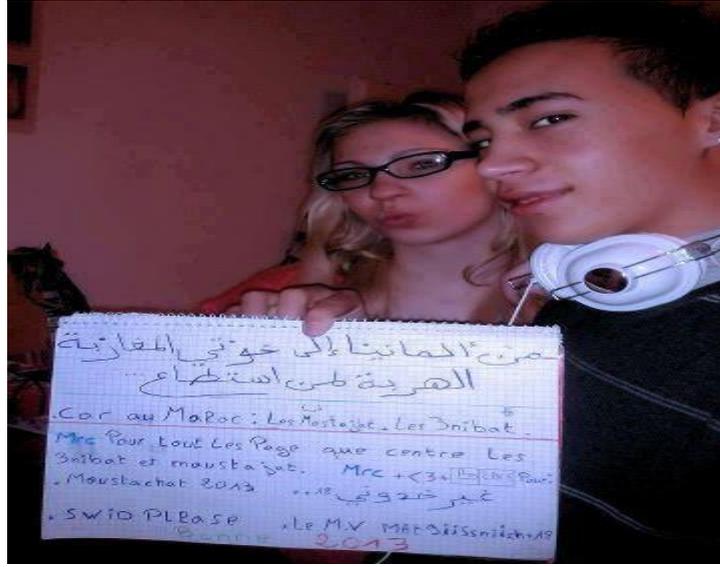
يبدو جليا أن المدخل إلى توظيف التقنية الرقمية وعالم الأنترنت في هذه الحالة بيّن؛ إنه الهجرة إلى الخارج التي لولاها لما تعاطت أمهات وآباء عديدون للعالم الافتراضي. لذا نجد أن عدد مقاهي الأنترنت قد ارتفع في العقد الماضي في كل جهات المدينة مثلا، كما تزايدت الانخراطات في شبكة الهاتف والانترنت العمومية. وتدعيما لهذا الاستنتاج، تبين المعطيات الميدانية الخاصة بالتحويلات العينية، كذلك، أن أقارب وأصدقاء المهاجرين والمهاجرات يتمكنون من الحصول على تقنيات حديثة من معدات رقمية متنوعة الجودة، من الخردوات إلى عالية الدقة، وحسب درجة وعي المهاجرة؛ فعن طريق الهجرة الدولية تغزو المجتمع المحلي حواسيب، آلات التصوير، الدي.في.دي DVD، أجهزة التلفاز، الهواتف الذكية... وغيرها من الآلات.

3.1.2. الحالة الثالثة: من رواد مقاهي أنترنت إلى مهاجرين دوليين

للتأكد من مدى صحة هذا الاستخلاص، قام الباحث بزيارتين لمقهى للأنترنت طوال أربع ساعات لمعاينة بعض الحوارات التي يجريها الأهالي مع مهاجرينهم (بطاقة ملاحظة رقم 11)، ثم لإجراء مقابلة مع صاحبيهما (مقابلة حوارية رقم 12، مع صاحبي محل للأنترنت cyber). ومما ورد على لسانيهما: "هناك حواسيب مشغولة طوال الوقت، ومستعملوها قد يحضرون منذ التاسعة صباحا وحتى الثانية ليلا. وبعض الأشخاص يحجزون مسبقا ويؤدون ثمن جميع الساعات كي يبقى المكان رهن قدمهم إلى المحل، وهم يجلسون يوميا لمدة ساعات طوال، أعرف أنهم يتصلون بزبناء كثر عبر العالم"، و"يتواصلون معهم بعدة لغات خاصة الإنجليزية والفرنسية والعربية، وبعضهم يتكلم عدة لهجات عربية كالحلجية واللبنانية لاسيما الفتيات [...]"، وتبقى أهم "تطبيقات وبرامج (Logiciels; Applications) من صنف، Facebook, Viber, WhatsApp, Skype، فضلا عن مواقع أخرى خاصة ومؤدى عنها بالعمالات الصعبة". كما أكد المستخدمان أن العديد من مرتادي المحل قد تعرفوا إلى أجناب وأجنيبيات فبنوا معهم علاقات اجتماعية افتراضية بداية ثم تحولت إلى واقعية، وتمكنوا بواسطتها من الارتباط

بأشخاص يضمنونهم لدى القنصليات الأجنبية بالمغرب للحصول على التأشيرة visa أو يساندوهم ماديا أو يستقبلوهم حين يهاجرون. يمكننا هنا الإشارة إلى تواصل الفتيات الخريبات بالأجانب لا سيما الأوربيين والخليجيين، وتواصل الفتيان بالأوربيات قصد الهجرة عبر الزواج؛ الفعلي منه و"الأبيض". (انظر Erreur ! Argument de commutateur inconnu. أسفله)

صورة رقم 5: شاب مغربي وقد ارتبط بشابة ألمانية عبر مواقع التواصل الاجتماعي



مصدر: صفحة مغاربة مهاجرين على الفيسبوك، 2013./10/15

4.1.2. الحالة الرابعة: صراع بين فردين بإيطاليا ينتهي بصراع بين أسرتين بخريكة

مثلا هي الحال في مجتمعات "التساند الاجتماعي القرابي" أو "التماسك الاجتماعي الميكانيكي" حسب دوركايم، تنتشر الوقائع الاجتماعية الصراعية على نحو "انقسامي" وفقا لميكانيزم "العصبية" خاصة أثناء التحالف والتآزر أو الصراع والتنافر. من الوقائع الميدانية التي صادفها البحث، نذكر حدثا فريدا جرت أطواره، هو الآخر، بطريقة "عبر وطنية".

في صباح أحد أيام شهر أبريل 2014، ونتيجة تراكم عدة مشكلات فيما بين مهاجرين بمدينة تورينو بإيطاليا، دخل الإثنان في صراع بلغت حدته تجاوز مرحلة الصراع بالأيدي والتهديد باستعمال الأسلحة البيضاء. توقف الصراع نتيجة تدخل أطراف ثالثة، بيد أنه بعد الزوال من نفس اليوم، ستجري فصول أخرى من ذلك الصراع بحى القدس بمدينة خريكة، فالمهاجران كلاهما من أصول هذه المدينة، وما كان من إحدى الأسر إلا الانتقال إلى منزل الأسرة الثانية والدخول معها في صراع بين مجموعتين تضم كل واحدة منهما أكثر من ثلاثة أفراد. ونلاحظ في هذه الحالة أن دور التكنولوجيا التواصلية فيما بين البلدان، لا يقتصر على "منافع تجربة الحياة بالمهجر"، وإنما يتعدى ذلك ليتم تحويل الصراعات الاجتماعية في بعض الأحيان إلى "صراعات عبر وطنية" كذلك.

في الأخير، نستنتج أن الهجرة الدولية قد شجعت بشكل مكثف على استعمال التقنيات المتطورة في التواصل وسط أفراد المجتمع الخريبي بوصفه مجتمعا يعرف غيابا فيزيقيا لأفراده المهاجرين. لكن هذا الغياب الذي كان تحصيل حاصل في العقود السابقة لم يعد كذلك في زمن تقنيات التواصل الاجتماعي الذكية، وإنما صار المهاجرون متصلين على الدوام ويعيشون اليومي الخريبي. وفي الوقت نفسه، أصبح أفراد الأسر من غير المهاجرين بخريبة يشاطرون الواقع اليومي لمهاجرين افتراضيا. ويحلنا هذا القول على مساءلة "ثنائية الغياب والحضور" التي تحكم حياة المهاجر والتي تطرقنا لها مع عالم اجتماع الهجرة عبد المالك الصياد؟

2.2. من ازدواجية الغياب إلى ثلاثية الغياب وثلاثية الحضور

في تحليلنا النقدي للمفهوم السوسولوجي "الغياب المزدوج Double absence" الذي أسسه عبد المالك صياد، توصلنا إلى أن الغياب قد يكون ثلاثيا "Triple absence" بحكم أن نسبة مهمة من المهاجرين تقدر بـ 76.22% في بحثنا قد عبروا عن شعورهم بالغربة إلى درجة الأزمة الشخصية والاجتماعية أحيانا، (74% منهم شعروا بالغربة بالمهجر؛ 24% شعروا بها هنا بخريبة؛ 10% شعروا بفقدان الذات واغترابها (جدول 2 أسفله)، وحوالي 49% منهم يوافقون على تحول المهاجر إلى "إنسان غريب". إنهم وإنهم يشعرون بغياب ثالث ناجم عن إسقاط للغياب الأول المتمثل في غياب المهاجرين عن بلد الانطلاق والأصول الأول، ثم للغياب الثاني المتمثل في غيابهم عن بلد الوصول ذهنيا واستحالة تحقيقهم لاندماج كلي وأصلي (authentique).

جدول 2: مدى شعور المهاجرين والمهاجرات الخريبيين بالغربة فيما بين المهجر والمجتمع الأصل

Fréq. (%)	Nb. cit.	مدى الشعور بالغربة وفي أي مجتمع
72,97	135	هناك بالمهجر
23,78	44	هنا بخريبة حين تعود
9,19	17	عن ذاتك ونفسك (الاغتراب)
5,41	10	آخر
4,86	9	لا
3,78	7	بدون جواب
185		TOTAL OBS.

مصدر: بحث ميداني، حيتومي، 2015.

لقد انكشف غياب آخر يتمثل في الشعور بالاغتراب الذاتي، بحيث يفقد الكثير من المهاجرين والمهاجرات من مختلف الأجيال، الأول والثاني بالخصوص، "بوصلة الانوجاد Boussole du savoir-être" السليم والملائم، أي تحقيق الوجود الشخصي غير المتعب للفكر والإدراك الذاتي، أو تحقيق التفاعل الاجتماعي في أشكاله المتعددة دون شعور أو تسبب في مشكلات نفسية واجتماعية سواء بالمهجر أو بالبلد المصدر، هذا النقد الجزئي لمفهوم "الغياب المزدوج" هو نوع من النقد المسائر للمفهوم، ما دامت النتائج البحثية الميدانية تؤكد وجود ظاهرة

الغربة والاعتراب وديمومة الشعور بالنظرة الأجنبية (Etrange). أما الآن، فإننا نورد نقداً تجاوزياً آخر غايته تجاوز "مفهوم الغياب" أصلاً وقلبه إلى "مفهوم الحضور".

1.2.2. من "مهاجر مزدوج الغياب" إلى فاعل اجتماعي افتراضي دائم الاتصال بمجتمع الأصول

لقد ساهمت التكنولوجيات الحديثة في تجاوز معيقات كثيرة كما أسلفنا، ولعل أبرزها تلك الصعوبات المرتبطة بالمكان والمسافة والوقت والثمن (نموذج تطور وسائل النقل والسفر من حيث السرعة والوفرة والتكلفة) ، أو صعوبات مرتبطة بالزمان كانتظار العطلة أو قضاء وقت طويل أثناء السفر، كذلك صعوبات التوصل بالمعلومة والخبر أو الوثيقة أو الصورة أو صعوبات مرتبطة بالقوانين السياسية أو الأحكام القضائية. وأخيراً صعوبات مالية ما دنا في عصر الرأسمالية التي تحول كل شيء بما في ذلك الفكر والقيم والإنسان ذاته إلى مفاهيم يحكمها منطق الربح والخسارة والمال والنقود (جورج زيميل G. Simmel في فلسفة النقود) . يستند مفهوم "الغياب المزدوج" عند عبد المالك الصياد على ثلاثة أبعاد أساسية هي "الغريب" و"الغائب" ثم "البعيد" منقطع الخبر. هذه المحددات الاجتماعية ظلت قائمة وبقوة في واقع الهجرة كما المهاجرة، وملازمة حياة المهاجرين، وحاضرة بحدة في حياة الأقارب والرفاق وسط مجتمع المصدر الخريبيكي إلى وقت قريب، لتتحقق ازدواجيتها. لكن ظهور الإنترنت وقبلها القنوات الفضائية والهاتف المحمول ثم الهاتف الذكي سيعرض تلك المحددات وأغلب الحواجز التي تقيدها، ويفكك أبعادها إلى غير رجعة، ما دام الاجتماع الإنساني محكوماً بالتطور والانتقاء والارتقاء عبر تاريخيته.

بالنتيجة، وكما أسلفنا الحديث أعلاه، ظهر " المهاجر المتصل" الذي يقضي جزءاً مهماً من وقته في التفاعل الاجتماعي محاولاً الإبقاء على سمة الحضور في حياته الاجتماعية بمجتمع الأصول بخريبيكة. كل ذلك عن طريق توظيف شبكات الاتصال والتواصل الاجتماعية المتنوعة لاسيما تلك التي تمكن من التفاعل الفوري حتى صار "المهاجر دائم التواجد والارتباط إلكترونياً ورقمياً"؛ ليشهد العالم الاجتماعي ظهور **الفاعل الاجتماعي الشبكي الرقمي المتصل** الذي يؤكد رغبته بالقول "لو كان باستطاعتي لقممت بزيارة جميع الناس والتواصل معهم" (استمارة رقم 102).

لقد صار المهاجرون والمهاجرات حاضرين جسدياً وذهنياً بالمهجر، وفي الآن نفسه حاضرين في المجتمع الخريبيكي عبر الصور والصوت والحركة المنقولة والتبادل والتواصل الدائم. هكذا يتحول "الغائب" إلى "حاضر عن بعد"، و"البعيد" إلى "القريب الشبيه بالبعيد"، وتبعاً لهما انتقل المهاجرون والمهاجرات من "وضع الغريب" و"المجهول" في "بلاد الغربة" إلى "وضع المعروف وكثير التردد" سواء بالمهجر أو بالبلد المصدر. وبديهي أن سمة "منقطع ومتقطع الخبر" باتت في حكم الماضي، وتم تعويضها بميزة "الخبر الفوري أو المعلومة اللحظية" (Live).

2.2.2. من "حياة اجتماعية متقطعة ببلاد الغربة" إلى "حياة اجتماعية عبر وطنية" ممتدة ومتصلة

كل هذه الأشكال من التغييرات الاجتماعية والثقافية التي لحقت عوالم المهاجر والمهجر ومجتمعات الهجرة الدولية، أصولا وعبورا ووصولاً، قد ساهمت في التحول من نمط الحياة الاجتماعية التي كان يميزها الغياب والاعتراب لتصبح في الوقت الحالي "حياة اجتماعية مزدوجة"، إن لم نقل متعددة، فيما بين بلدان المهجر ومدينة خريبكة؛ وهي نمط جديد ومستحدث من الحياة التي أنتجتها الهجرة الدولية في إطار "العولمة من الأسفل" (Portes, A. 1999: 61). وبالتالي نستنتج أن العيش اليومي للمهاجرين قد صار "حياةً اجتماعيةً عبروطنيةً".

وبالنظر إلى الهجرة الدولية كفرصة ومجال وتجربة واقعية وافترضية للعيش وفق نموذج "حياة اجتماعية عبروطنية"، فإن ثمة مجموعة عوامل أساسية قد تحكمت في هذه التحولات التي عرفتها الهجرة الدولية، والتي ساهمت في التغييرات الاجتماعية المذكورة. بهذا الصدد يمكن حصر أهم العوامل المحددة في ستة نوردتها تباعاً كالاتي:

أولاً، الاستعداد والتطلع البدئي والمستمر نحو "التغيير" لدى المهاجر باعتباره فرداً غائباً يسعى "على الدوام" إلى مرحلة العودة إلى مدينة خريبكة أو الوطن المغرب لإنجاز الفعل الاجتماعي في "أكمل صورته"، وتحقيق "نموذج الحياة الشخصية" الذي يصبو إليه؛

ثانياً، تطور وسائل النقل والسفر من حيث السرعة والوفرة والتكلفة؛

ثالثاً، تطور وسائل الإعلام الفضائي، وانتشار استعمال الصحون اللاقطة والمستقبلات الرقمية، ثم حضور قضايا العالم العربي والإسلام والإرهاب والحروب التي تعرفها منطقة شمال إفريقيا والشرق الأوسط (الامتداد الهوياتي للمهاجرين من خريبكة والمغرب) على الساحة الدولية؛

رابعاً، تطور تكنولوجيا الاتصال والتواصل عبر الهاتف والإنترنت على وجه التحديد؛

أما خامساً، فليست التكنولوجيا التواصلية والاتصالية والسفريّة وحدها العوامل المسؤولة عن هذا التحول الجوهري في محددات الهجرات الدولية بين ماضٍ قريب رصده عبد المالك صياد في إشكالية "المهاجر مزدوج الغياب" وواقع راهن تمت ملاحظته أمبريقياً يتأطر ضمن الحياة الاجتماعية عبر الوطنية كما تبين. فضلاً عن ذلك، وبالنظر إلى مرحلة إعادة هيكلة الاقتصاد العالمي (كاستلنز، س. و ميللر م.، 2013: 253) التي يعيشها العالم حالياً، فإن التغييرات في أنماط الاستثمار العالمي (مكافأة الرأسمال أكثر بكثير من قوة العمل) والثورة التكنولوجية الصناعية (تعويض الإنسان بالآلة الذكية: الروبوت) والاقتصاد الافتراضي (أي غير الواقعي أو الذي ليس له مقابل عيني في السوق)، وسيطرة السوق النيوليبرالية، قد مثلت دينامية حاسمة في هذه التحولات؛ لاسيما حين أدت أزمة الائتمان إلى حدوث الأزمة المالية التي تطورت إلى أزمة اقتصادية عالمية واجتماعية في عدد من البلدان.

سادسا، وأخيرا، من الثابت أن المهاجرين يعتبرون من الفئات المجتمعية الهشة الأولى التي تتأثر بالأزمات. وكنتيحة للأزمة العالمية الأخيرة التي تعرض لها غالبية المهاجرين بنسبة بلغت إحصائيا 71.35% في عينة البحث، اندفع هؤلاء، وأحيانا مع أسرهم، إلى التردد بكثرة على مدينة خريبكة بمعدل يفوق مرتين في السنة الواحدة، في إطار زيارات لعدة شهور أو عودة مؤقتة. بل إن فئة مهمة عادت للاستقرار بالمدينة هنا بالمغرب، إما بشكل مؤقت وإما بشكل نهائي. ما يهمنا من هذا المعطى الآن هو **تأكيد فكرة الحضور المستمر للمهاجرين بمدنيتهم كتغير اجتماعي عرفه الواقع الهجروي أولا، وهو ما نتوقع أنه منح قوة في مفعول التغيير الاجتماعي بالمجتمع الخريبي المرتبط بتأثير الفعل الهجروي.**

جملة القول، إن الغياب المزدوج أو الغياب الثلاثي استبدل بازدواجية الحضور وثلاثيته. لقد صار البعيد قريبا، والغريب معتادا، والغائب حاضرا، ومقطوع الأخبار **دائم الاتصال**، وصارت الرسائل الورقية المتقطعة **أرقاما إلكترونية متسلسلة**. لقد تفاعلت الهجرة بالعملة وبالتكنولوجيا لتصنع لنا واقعا هجريا جديدا سمته الأساسية هي الارتباط والتواصل الفوري في مجتمع خريبي ممتد ومتصل (*société connectée élargie*) فيما بين المجال الخريبي ومجالات اجتماعية دولية "نائية-قريبة" في واقع اجتماعي يتميز بظهور "المهاجر الخريبي كفاعل اجتماعي غائب حاضر ومتصل" *migrant connecté* من أبرز سماته كونه عبئا للبلدان ويعيش عبر الأوطان، متمثلا للثقاف، عن وعي أو عن غير-وعي، مجسدا للآخر أو الغير الذي لطالما اكتنف الجهل به والاحتياط منه كل التمثلات الثقافية عنه.

خلاصة

لقد انتشرت ممارسة الفعل الهجروي بمدينة خريبكة على نحو كثيف خلال العقود الثلاثة الأخيرة، وقد تمخض عن ذلك كما رأينا ظهور قضايا وظواهر اجتماعية متميزة. ومن الظواهر الإضافية التي تطرقنا لها خلال هذا الفصل ثمة قضيتان جديدتان تتطوران منذ بداية القرن الواحد والعشرين، هما: تفاعل الهجرة الدولية مع التكنولوجيات التواصلية الذكية، ثم تفاعل المهاجرين وعائلاتهم مع أزمات الهجرة الدولية، بحيث ترتب عن ذلك مجموعة من التغيرات الثقافية والاجتماعية النوعية.

ونستخلص مما سبق أن الهجرة الدولية تفرض استعمال الوسائل التواصلية بكثافة على المهاجرين بالمهجر وعلى أهاليهم بخريبكة. فهي قد ساهمت وتساهم في تحويل أو تسريع التحول الاجتماعي للمهاجرين وأقاربهم في المجتمع الخريبي إلى صيرورة الإنسان الرقمي التي تقدم إليها تاريخ البشرية خلال هذا العصر؛ فالمهاجرون والمهاجرات بجميع فئاتهم تقريبا أصبحوا مواطنين في العالم الرقمي الذي يحقق لهم ولأقاربهم وأصدقائهم أينما ابتعدوا أن يمكنوا في ارتباط وتواصل عابر للحدود التقليدية (الجغرافية والقانونية)، ويضمن لهم "حياة اجتماعية عبر وطنية". لهذا

نجمل القول بشأن التحولات الاجتماعية التي تساهم فيها ظاهرة امتزاج الهجرة بالتكنولوجيا في زمن العولمة في الآتي:

- المساهمة في "محو الأمية الرقمية" المنتشرة بين كبار السن من آباء وأمّهات المهاجرين، وفي "كسر الحدود الرقمية الجديدة التي تنشأ بين الأجيال في زمن التقنية والإنسان الرقمي" (Tiphaine, Zetlaoui, 2015 : 302-303). كم هو قوي أن هذا التغيير حين تلاحظ هؤلاء الأشخاص يحاكون أبناءهم ويسألونهم "كيفاش نشغل الكمبيوتر؟ أشنو هي البوطونة اللي نضغط عليها؟ فين نبرك بهاذ السوري (أي فأرة الحاسوب)؟" بالدارجة المحلية، أي "أرني ما هو الزر لوحة المفاتيح (clavier) الذي أضغط عليه؟ كيف أشغل الحاسوب؟ في أي مكان على الشاشة أضغط بسهم فأرة (أي الماوس)؟... بالعربية الفصيحة.
 - **تمديد العلاقات والروابط الاجتماعية الخريكية** مجاليا وثقافيا واجتماعيا لتتعدى إكراهات المكان والقوانين والحدود، ليشهد المجتمع المحلي تحولا نوعيا من "الأسرة والعائلة المتقاربة والممتدة قرابيا" إلى "الأسرة والعائلة الممتدة جغرافيا والمتقاربة افتراضيا وعبروطنيا"؛
 - ظهور ما يعرف بـ "الأسرة المعولمة" الممتدة والمنتشر أفرادها عبر بقاع العالم، أو التي باتت تضم بين أعضائها أفرادا بثقافات مختلفة، وجنسيات متعددة، فضلا عن الهويات غير المنسجمة ولا المتوحدة أو المتشابهة؛
 - **تمتين الروابط الاجتماعية** بالمجتمع الخريكي والسهر على فاعليتها عبر كثرة الاتصالات والتواصل الاجتماعي الرقمي، مما يزيد في منسوب التماسك الاجتماعي؛
 - نشوء **الأسرة المتصلة** التي لا تفرط في الروابط الاجتماعية القوية فتحوّلها إلى روابط تواصلية رقمية، كما يمكن الحديث عن مجتمع متصل؛
 - استبدال "الغياب المزدوج" بما أسميناه "ازدواجية الحضور"، طالما صار البعيد قريبا، والغريب معتادا، والغائب حاضرا، ومقطوع الأخبار **دائم الاتصال**، واستبدلت الحروف الورقية أرقاما ورموزا إلكترونية.
 - لكن تبقى الخلاصة الأساسية ماثلة في تبادل المعلومات وتبادل العناصر الثقافية فيما بين المهجر المتعدد المتنوع والمجتمع الخريكي بسهولة وسرعة مما يحقق واقعا أشكالا جديدة من **التشاقف الرقمي**. ويكفي أن نتخيل الكم الهائل للأفكار والمعلومات التي يتم تداولها، وبشكل يومي مركز، فيما بين المهاجرين والمهاجرات وأقاربهم وأصدقائهم المتواجدين بخريكة؛
- أما فيما يتعلق باختراق الأزمات للمشروع الهجروي، ومدى تأثيرها على الحياة الاجتماعية بمجتمعات الهجرة (سواء ببلدان المهجر أو بخريكة وبلدان الأصول)، فقد تبين أن الأزمات كوقائع اجتماعية سرعان ما تُحدث تغيرات اجتماعية نوعية. فالهجرة الدولية تتميز بكونها ظاهرة مجتمعية هشة، وتجعل المهاجرين في وضعية أزمة

بسهولة وعلى نحو أكيد، لاسيما ثقافيا ونفسيا واجتماعيا، قبل أن تشتد اقتصاديا أو سياسيا. كما تضع مجتمع الأصول الخريبيكي، أيضا، في ما يمكن أن نسميه "القابلية للأزمة" القادمة من الخارج عن طريق ارتباطه بمجتمعات مهجرية تقيم بها شرائح عديدة من أعضائه.

علاوة على ذلك، تبين أن للأزمة، التي تحاصر المهاجر ومجتمعاته، مداخل عديدة. لعل أهمها الأزمة الأولى التي تعرض للأفراد "الهجرة كخيار وكحل"، لتتوالى الأزمات الأخرى متخللة الحياة المهجرية أو متوارية ومتخفية غالبا ضمن "اليومي" و"تسارع الحياة المعاصرة". وإذ يغلب على تمثلات الأزمة طابع الأثر السلبي والضرر المتحقق واقعا، وهو ما تعكسه الدراسات العلمية أيضا، فإننا حاولنا تجاوز هذا الطرح السائد وبناء طرح آخر ينطلق من اعتبار الأزمة فرصة اجتماعية للتنمية وللتغير الاجتماعي، في الحياة الخاصة بالمهاجر، والحياة الاجتماعية لمجتمع الانطلاق. وبالتالي، فللأزمات تُحدث أنواع إضافية من التغير الاجتماعي في مجتمعات المهاجرين، أي في مجتمعات الأصول ومجتمعات الوصول.

تبعاً لذلك، فإن للأزمة مفعولا تحويليا للواقع الاجتماعي من "واقع الأزمة باعتبارها لحظة عطب" إلى "واقع الأزمة بوصفها فرصة". هذا المفعول يتجلى في:

- تغيير طريقة العيش المهجرية، أو بعض عادات المهاجر؛
- تغيير طريقة العيش بالمجتمع الخريبيكي لدى المهاجر ولدى عائلته؛
- تغيير طريقة تدبير المال، إنتاجا واستهلاكاً؛
- تغيير نوعية النشاط الاقتصادي، من العمل المأجور إلى التشغيل الذاتي؛
- تغيير بلد المهجر، والتحول إلى مهاجرين عبر وطنيين؛
- وتغيير طريقة التفكير حول المستقبل.

وهكذا، تكون الأزمة الاقتصادية قد عملت على الرجوع بالمهاجرين وأسرهم من "ثقافة الإسراف والاستهلاك المفرط والتباهي اجتماعيا وتبذير التحويلات لوفرثها" إلى "الاقتصاد المبني على مفهوم الندرة". أما بالنسبة لمجتمع الأصول الخريبيكي، فإنه يكون قد استفاد من الأزمة، في أحد أوجهها، من خلال عودة الكثير من المهاجرين، ولجوئهم إلى استنساخ بعض المشاريع الاقتصادية من المهجر، وتأسيس مجموعة من المقاولات الصغرى، وفتح محلات تجارية وخدمائية نوعية وذات جودة، سواء من حيث جودة الفضاء والتجهيزات أو من حيث جودة الخدمة.

بناء على ذلك، يبقى الاستخلاص الأهم ماثلا في واجب تدبير أزمات الهجرة وفق رؤية جديدة، والانتقال بها من "وضع الأزمة إلى وضع الفرصة"؛ وعليه ينبغي تقوية "المناعة من الأزمة" كآلية لتفادي الوقوع في الأزمات المتعددة والملازمة لظاهرة الهجرة الدولية، أو الحد من آثارها التي قد تصل درجة الكارثية

Catastrophique". وقد ترتب عن تحليل المعطيات الميدانية الخاصة بالأزمة المرتبطة بالهجرة طرح تساؤل مهم: لم لم تستطع الدراسات والبحوث العلمية في ميدان الهجرات الدولية توقع أزمة الهجرة، وبالتالي التوجيه نحو تدبيرها أو المساهمة في التقليل من أعراضها السلبية على الجالية المغربية بالخارج، ومن ثمة الساكنة المرتبطة بها هنا بالمغرب. يدفعا ذلك إلى التساؤل حتما عن الأثر الفعلي والدور العلمي لتراكم هائل من الدراسات والبحوث على امتداد أربعة عقود على الأقل، لكن دون أن تحمي المهاجرين من "تهديد أزمة الهجرة الدولية" سواء على مستوى "الثقافة الهجروية"، أو سواء على مستوى المؤسسات المدنية وإدارات الدولة. وماذا عن المؤسسات المستفيدة من التحويلات في زمن الرخاء كالبنوك؟

ختاما، ومن وجهة نظر نقدية، إن أولى الخلاصات النوعية التي تبدو لنا غاية في الأهمية، تتجلى في ظهور "الأسرة المعولة"، وتعلم الكبار للتقانة الذكية، وتوظيف المهاجرين ومجتمعهم الخريكي للتواصل الاجتماعي الرقمي واللحظي العابر للبلدان، ومحاولة أفراد العائلات المتباعدين البقاء متصلين ومتقاربين فيما بينهم عبر شبكات الأنترنت، إدراك قوة تأثير الأزمات على المشروع الهجروي، والبحث عن الفرص البديلة لهاته الأزمات. وكل هذه الوقائع تعتبر مظاهر لفعل اجتماعي آخر غير مباشر، أي أنها تنجز وظيفة اجتماعية كامنة حسب بارسونز وميرتون. ويتمثل هذا الفعل في مقاومة العولمة والحدثة لاسيما في مواجهة مفعولها القائم على الفردانية وتفكيك البنية التقليدية للأسرة، وتحويلها من عائلة ممتدة إلى أسرة نووية، ومن الهويات الجماعية إلى الهويات الفردية. وبذلك تكون الوسائط الحديثة للتواصل الاجتماعي تعمل على تقوية الروابط الاجتماعية العائلية على الرغم من تمدداتها جغرافيا وثقافيا واجتماعيا وسياسيا.

البيبلوغرافية المعتمدة:

1. بك، أولريخ وآخرون (2014) [2011]، الحب عن بعد: أنماط حياتية في عصر العولمة، ط1، ترجمة حسام الدين بدر، مراجعة عليه همام علي الدين، منشورات الجمل، بيروت.
2. كابان، فيليب و دورتيه، جان فرانسوا (2010)، علم الاجتماع: من النظرات الكبرى إلى الشؤون اليومية؛ أعلام وتواريخ وتيارات، ترجمة إياس حسن، ط1، دار الفرق، دمشق.
3. كاستلز، ستيفنوميلر، مارك (2013) [2009]، عصر الهجرة، ط4، ترجمة: منالدروي، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
4. كولبير، بول (2016) [2013]، الهجرة: كيف تؤثر في عالمنا؟، ترجمة مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة، ع 439، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
5. كريب، إيان (1999)، النظرية الاجتماعية: من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، سلسلة عالم المعرفة، ع 244، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
6. غيدنز، انتوني (2006) [2001]، علما لاجتماع، ترجمة فايز الصايغ، ط4، المنظمة العربية للترجمة، توزيمركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

7. Bagault, Céline « Quand les migrants changent le monde », url : http://www.scienceshumaines.com/quand-les-migrants-changent-le-monde_fr_30626.html , Mis à jour le 14/05/2013 ; (consulté le 07/06/2013).
8. Boudoudou, M. (1998), « Pour une sociologie de la « science » de l'Emigration-Immigration marocaine à l'étranger », in : les sciences humaines et sociales au Maroc ; Etudes et arguments, Institut Universitaire de la recherche scientifique, Université Mohammed-V Suissi, Rabat, pp 55-89.
9. Boudoudou, M. (2004), « changement social et problématique identitaire au Maroc », in : Bulletin

- économique et social du Maroc, Rapport du social, n° 163, éd. Okad, Rabat
10. Boudoudou, M. (2005), «Du processus de constitution de communautés migrantes marocaines transnationales», (A propos d'un colloque), Rencontre Académique sur « les nouvelles migrations marocaines », Sussex Center for Migration Research, Sussex University, Brighton, Royaume Unis, Juillet 2005. document non publié.
 11. Boudoudou, M. (2010), « Capitalizing on diaspora: From "Brain drain" to "Brain gain" : Moroccan case study and Asian (benchmarking) paradigm », Esesco, Cairo.
 12. Cardon, Dominique (1991), "Sayad (Abdelmalek) : L'immigration ou les paradoxes de l'altérité", In: Politix, Vol. 4, N°15. Troisième trimestre 1991, pp. 79-82, De Boeck/Editions universitaires, Bruxelles. url : http://www.persee.fr/doc/AsPDF/polix_0295-2319_1991_num_4_15_2150.pdf; (13/02/2014)
 13. Castells M. (2001), L'Ère de l'information, 3 tomes, coll. « Documents », éd. Fayard.
 14. Castles, S. & Miller M. (2009), The Age of Migration: International population movements in the modern world, 4th ed., the Guilford Press, New York.
 15. Castles, S. (2007), "migration and social transformation", inaugural lecture for the migration studies unit (MSU), London School of Economics and Political Science (LES), 15 novembre 2007. url: <http://www.lse.ac.uk/government/research/resgroups/MSU/documents/eventsRelated/castles151107-presentation.pdf>; 26/06/2015.
 16. Castles, S. (2010), « Understanding Global Migration_ A Social Transformation Perspective », url: <http://www.tandfonline.com/doi/abs/10.1080/1369183X.2010.489381>;
 17. Castles, S. (2010), Theories of migration and social change, url : <http://www.imi.ox.ac.uk/events/theories-of-migration-and-social-change/castles.pdf>;
 18. De Haas, Hein (2007), « The impact of international migration on social and economic development in Moroccan sending regions a review of the empirical literature », working paper, International Migration Institute, University of Oxford.
 19. De La Vega, Xavier, « Les fourmis de la mondialisation », url : http://www.scienceshumaines.com/les-fourmis-de-la-mondialisation_fr_21593.html; 28/05/2011.
 20. Degennes A., Forse M. (2005), Les Réseaux sociaux, coll. « U-Sociologie », éd. Armand Colin.
 21. Goldin, Ian, Cameron , Geoffrey & Balarajan, Meera (2012), Exceptional People: How Migration Shaped Our World and Will Define Our Future, Princeton University Press, New Jersey, 371p.
 22. Goldin, Ian, Geoffrey Cameron & Meera Balarajan, Exceptional people: How migration shaped our world and will define our future, Princeton University Press, « More borders mean more migrants ». url :<http://www.weforum.org/agenda/2016/01/how-immigration-has-changed-the-world-for-the-better>; 01/02/2016.
 23. Levitt, Peggy and Nina Glick (2004), «conceptualizing simultaneity: a transnational social field perspective on society», in: International Migration Review IMR, vol, 38, n° 3, p :1003. (reformulation of the concept of society).
 24. Levitt, Peggy and Ninna Nyberg-Sorensen (2004), « The transnationalism turn in migration studies », in : Global Commission on International Migration (GCIM), Global migration perspectives, n°.6, october 2004. url : http://www.iom.int/jahia/webdav/site/myjahiasite/shared/shared/mainsite/policy_and_research/gcim/gmp/gmp6.pdf; 20/06/2015
 25. Marchandise, Sabrina (2012), «Investir le web social des étudiants marocains en mobilité internationale. Une méthode imposée par le terrain », Avril 2012.
 26. url : <http://www.e-diasporas.fr/working-papers/Marchandise-MoroccansFacebook-FR.pdf> ; (20/03/2015)
 27. Massey, Douglas S. (1998), Worlds in Motion: Understanding International Migration at the End of the Millennium, Oxford University Press, Oxford, p 17.
 28. Massey, Douglas S. (2003), « Patterns and processes of international Migration in the 21st century », Paper prepared for conference on african migration in comparative perspective, Johannesburg, 4-7 june, 2003, 42 p. Url : <http://citeseerx.ist.psu.edu/viewdoc/download;jsessionid=87D0C831DFB797D182F262F171B13AA0?doi=10.1.1.473.925&rep=rep1&type=pdf>; (15/10/2015)
 29. Mills, C. Wright (2000), The Sociological Imagination, 14th ed. NY: Oxford.
 30. Portes, Alejandro & DeWind Josh, (edited by) (2009), Rethinking migration :New theoretical and empirical perspectives, Center for migration studies of New York, pub. Berghahn Books, ed. Hardback, New York, 453p.
 31. Portes, Alejandro (1999), « La mondialisation par le bas : L'émergence des communautés transnationales », pp : 15-25. In: Actes de la recherche en sciences sociales, Vol. 129, septembre 1999, Délits d'immigration.
 32. url :http://www.persee.fr/doc/arss_0335-5322_1999_num_129_1_3300; (23/03/2017).

33. Sayad, Abdelmalek (1979), « Les enfants illégitimes [1ère partie] », In: Actes de la recherche en sciences sociales, Vol. 25, Le pouvoir des mots, janvier 1979. pp. 61-81. url : http://www.persee.fr/doc/arss_0335-5322_1979_num_25_1_2623; 17/02/2014.
34. Sayad, Abdelmalek (Association des Amis d'Abdelmalek Sayad, CCME et Génériques) (2010), Actualité de la pensée d'Abdelmalek Sayad, Actes du Colloque international 15 et 16 juin 2006, Paris.
35. Sayad, Abdelmalek (1979), « qu'est-ce qu'un immigré ? », in Peuples méditerranéens, n°7, avril-juin 1979.
36. Sayad, Abdelmalek (1977), Les trois "âges" de l'émigration algérienne en France, In: Actes de la recherche en sciences sociales, Vol. 15, juin 1977, Sociologie historique du mandarinat. pp. 59-79. url: http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/arss_0335-5322_1977_num_15_1_2561; (30/11/2015).
38. Sayad, Abdelmalek (1975), « Elghorba ou la reproduction de l'émigration », pp 50-66, in : Actes de La Recherche en Sciences Sociales, vol.1, No2, mars, Paris.
39. Tarrus, Alain (2015), «Les transmigrants sont des nomades, acteurs d'une mondialisation par le bas», interview par Catherine Clavet, 01 septembre 2015, journal français libération : url : http://www.liberation.fr/planete/2015/09/01/alain-tarrusles-transmigrants-sont-des-nomades-acteurs-d-une-mondialisation-par-le-bas_1373881; 24/03/2016.
40. Thomas, W. I. et Znaniecki F. (1998) [1919], Le paysan polonais en Europe et en Amérique: Récit de vie d'un migrant (Chicago, 1919), Traduit par Yves Gaudillat, coll. Essais et Recherches, Nathan, Paris. (Introduction), (ex. de titres : Histoire de vie d'un homme ordinaire ; Le manuscrit de Wladek).
41. Tiphaine, Zetlaoui (2015), « Imad SALEH, Nasreddine BOUHAÏ, Hakim HACHOUR , dirs, Les Frontières numériques. Paris, Éd. L'Harmattan, coll. Local et global, 2014, 262 pages», in : Questions de communication, 2/2015 (n° 28).
42. URL: www.cairn.info/revue-questions-de-communication-2015-2-page-302.htm.(06/03/2016).
43. Zaganiaris, Jean (2015), « Le Maroc, société composite, société plurielle: Hommage au sociologue Paul Pascon (1923-1985) », in : url : http://www.huffpostmaghreb.com/jean-zaganiaris/le-maroc-societe-composit_b_7187560.html?ncid=fcbklnkfrhpmg00000007 ; 01/05/2015
44. revue Migration: Abdelmalek sayad, n° 14, 1999, Paris.
45. revue Migration: un siècle de migrations marocaines, n° 24, 2004, Paris.